

على ضفاف بردى

مرحباً يا شباب .. وفتح شرطي (الجرك) باب
السيارة وصعد إلينا مهتلاً، وأعاد التحية مشفوعة بحمله:
الله يعطيكم العافية يا إخوان .. فكنت كمن صحا من نوم .
هل تحققت آمال الصبا ؟ . وهل نحن على أبواب دمشق ؟
ما أغرب الأمانى ، وأمانى الطفولة على الأخص كنا على
مقعد المدرس ، نحدث النفس بجولات وسياحات في البلاد
العربية ، فإذا مر في دروس « الجغرافيا » ذكر دمشق ،
عاصمة الوليد ، ومدينة الذكريات والمفاخر الإسلامية ،
صفق الفؤاد طرباً وداعبت الأمانى نفوسنا ، وكل منا

يحدث نفسه بزيارتها متى
أنهى تعليمه .. ويحدثنا
المعلم عن تاريخ وجمال
دمشق ونحن نصغى إليه
بشوق واهتمام فالحديث
عن دمشق حبيب إلى كل
قلب .

أما الآن ، وفي هذه
اللحظة فما هي إلا حذقة
عصا ، كما يقول أهل
البادية . . حتى نكون
في قلب الشام .

وفارقنا جرك ، أبي
الشامات ، على عجل

يستخفنا الشوق الجهم ، ويدفعنا الحنين إلى المدينة الخالدة
ورؤاها السحرية ، وانطلقت سيارتنا تطوى الطريق
الطويل حتى دخلنا غوطة دمشق التي طالما تغنى بها الشعراء ،
خفت علينا أغصان الزيتون ، وظللتنا أشجار الحر
والصفصاف ، وأنعشنا نسيم الغوطة المعطر بأريج الأزهار
والرياحين .. وقد داعبت شمس الأصيل صفحات الجداول
الصفافية .. وما أجل الأصيل بين تلك البساتين الظليلة ،
فلقد أذكرتني قول شوقي :

دخلتك والأصيل له ائتلاق

ووجهك ضاحك القسما طلق

لقد دخلنا دمشق كما دخلها شوقي ، فرأينا الأطياف
تناجي الأزهار ، والأنهار تتدفق تحت ظلال الأشجار
والفلاح المرح يرسل اللحن الشجي « بالعتابا والموال » ،
والفلاحات وقد لبسن ثياباً لها لون اليرتقال ، فبدت جميلة
في الخضرة الزاهية حولها ، وهن يتخطرن بخضر ورشاقة
تحت ظل الشجر ، حول يافع الزهر وداني الثمر ..
وما هذه العروش المتباعدة بين الحقول ؟ إنها عروش

النواوير ، حواش
الكروم ، فما أسعدهم على
عروشهم ، وما أبدع
أصواتهم وهم يرددون
الآغاى القروية الجميلة .

ألقيت نظرة إلى رفاق
الرحلة فإذا بأعينهم تتطلع
إلى ما حولهم بإعجاب
وافتنان ، وسيارتنا تمر
بالضواحي . هذه «دوما»
بلد العنب « الدومانى » ،
وتلك « داريا » بلد التفاح
فإذا سمعت البائع الدمشقي
يقول « ديراني ياتفاح »



في ساحة المرجة بدمشق

فاشتر منه فإنه التفاح المفضل : ومررنا بقرى كثيرة
تناثرت على ضفاف الأنهار . حتى دخلنا المدينة ، وأول
ما لاح لأعيننا ولفت أنظارنا « حافلة كهربائية » خضراء
اللون تنهذى بحملها من الناس بطرايشهم الحمراء وأرديتهم
المزركشة قافلين إلى قراهم بعد انتهاء أعمالهم في المدينة .

ووقفت السيارة أمام مبنى أنزلت أحمالها فيه ، وتفرق
الجمع إلى الفنادق ، ومضيت وصديقي إلى فندق قريب ،
وقف صاحبه بيا به يرحب بالزلاء « أهلين وسهلين » فهو

المهاجرات

قطعة من نسيج قطن خام خشن فوق هيكل من عظام
ثم رأس ، رأس السبرمان موجوداً كما صوروه في الأوهام
أذن قد أعارها الفيل إياها . وأنف من الأنوف الضخام
وعيون كمن خلف زجاج نافذات ولا نفوذ السهام
وثنايا من المشيب ههته من تريك الشباب بالابتسام
قام من بينها لسان ذليق غير مسترسل ولا تتمام
ولعمري لولا الأديم لقلنا هيكل عاش منذ ألى عالم!

هذه الصورة التي تملأ الكون ضجيجاً محاطة بزحام
هزت الهند بالمحيط بهملاً يا وما بينها من الأقوام
وحدث حولها الملايين ممن خلقوا وسط بؤرة الانقسام
وهم الرمل عدة وانحلالاً إنهاراً إن ديس بالأقدام
يتحدى القوى الكبيرة بالروح فيعنعو لأمره كل هام
بسلاح من التقشف والزهد ويرمى قنابلاً من صيام

عالم الفرج

سكان دمشق ، في كل شارع حنفية ، فيجة ، — وبلودان
والزبداني مصائف تنسيك حرارة الصيف ،
وتبعث في جسمك القوة والنشاط .

ولا ينسى زائر دمشق نزاهات المساء في شارع بغداد ،
وفي طريق الصالحية ، يسير بهما الساعات الطوال ولا يشعر
بالتعب لفرط ما هو فيه من بهجة وسرور ، فرحم الله
شوقي حيث يقول :

آمنت بالله واستئنيت جنته

دمشق روح وجنات وريحان

السكوت

محمد الفوزان

لا يسكتني بأهلاً وسهلاً واحدة ، بل إن كلمات الترحيب
تفيض على لسانه كلما رأى ضيفاً مقبلاً ، وحسن المعاملة
طبع متأصل في نفوس أهل الشام .

أضفى الليل رداءه على المدينة ، وبى وبصاحي من تعب
السفر ما يشغلنا عن الخروج ، ولكن هل نستطيع ونحن
في دمشق ولأول ليلة أن ننزوي في الفندق إلى الصباح ؟
لا .. إذن غير بدلة السفر أيها الصديق . واتبعني ..
ولكن إلى أين ؟ .. إلى بردى ، فعلى ضفاف بردى تطيب
الزهة ويحلو السمر .. وجلسنا إلى بائع « التوت » ،
فسامرته ونأكل من بضاعته الشبية حتى داعب النوم
الأجفان فرجعنا إلى فندقنا .

وفي الصباح الباكر تنوعت الزيارات فبعد أن شاهدنا
« الجامع الأموي » وعمارته ، وقد بلغت من الروعة حداً
كبيراً ، وقبر النبي « يحيى » عليه السلام ، ويقع في جانب
منه ، والأحواض التي لا ينقطع جريانها متعددة في هذا
المسجد العظيم ، خرجنا لزيارة قبر البطل الفاتح صلاح الدين
الأيوبي ، ولا يبعد كثيراً عن الجامع ، ثم خرجنا إلى
أسواق دمشق تمتع النظر بما يمتاز به الدمشقيون من ذوق
حسن في عرض بضائعهم وتنسيقها ، وركبنا عربة طافت
بنا أحياء دمشق القديمة النظيفة ، فالنظافة فن يحسنه كل
دمشقي .

وأقلطنا في اليوم التالي سيارة إلى جبل المهاجرين ،
ومنه يبدو منظر دمشق الرائع ، منظرها وقبائها وعماراتها
الفخمة ، غارقة في لجة من الخضرة الزاهية .

وزرنا في يوم آخر « الربوة » ولا أحدثك عن جمالها
وسحر مناظرها ، فما شهد امرؤ « الربوة » إلا وأحب أن
يزورها مراراً وتكراراً ، ومن يشهد الخلاق يوم الجمعة
وقد تقيأت ظلال أشجارها على ضفة النهر الهادي . يأخذه
العجب لكثرتهم وتآلفهم ، فالكل في أنس وبهجة
وصفاء ..

ويطول البحث لو أني حدثتك عن جولات كثيرة
في مصائف الشام الهادئة .. وعن نهر دمر ، وعين بقين ،
والعين الخضرة ، وعين الفيحة — التي يشرب منها جميع